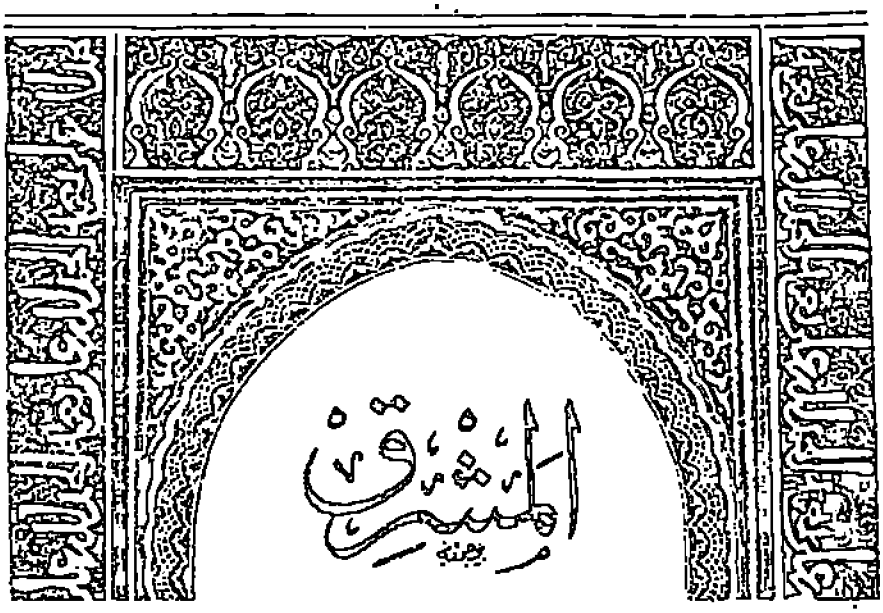

السنة الثامنة والثلاثون — تموز - ايلول ١٩٦١

الأرض والأعمال الزراعيّة

في لبنان وسورية

على العهد اليوناني - الروماني*

بقلم الاب رينه موترد اليسوعي
مدير معهد الآداب الشرقية

ان مستقبل البلاد في زراعتها .

كم تردّد على مسامعنا هذا القول ، كلّما تناولنا البحث في موارد لبنان وسورية ! ومما لا شكّ فيه ان ارض الساحل الفنيقي، وارض سورية اجمالاً — وقد خلت من المعادن الثمينة خلوّها من البترول — لا يمكنها إعاشة سكّانها الّا بالزراعة . والاراضي فيها صالحة للمزروعات ؛ وهي وافرة الخصب ، اذا ما اعتُني بتنظيم ريّها . ثم انها ، بفضل ما اختصّت به هذه

*) مادّة المحاضرة الاولى من محاضرات معهد الآداب الشرقية للسنة ١٩٦٠ — ١٩٦١ في فرع « التاريخ والآثار القديمة » .

البلاد من تدرّج المناخ بتدرّج المناطق صاعدةً من الساحل الى اعالي الجرود ، اصبحت وافرة الانتاج لمختلف الفواكه ، ومتنوّع الخضار .

هذه حالة الارض الطبيعية التي علينا ان نستثمرها . وقد يكون في درس التاريخ القديم ما يُولينا العِبَر في هذا الاستثمار . ولهذا رأينا ان نستفيد اليوم من التاريخ اليوناني - الروماني ، فندرس كيف عرض القوم لمشكل الارض والزراعة وكيف عملوا على حلّه .

ولنشر ، بادئ ذي بدء ، الى حلّ سطحي كثيرًا ما اخذ به بعض الكتّاب ، كلّما عرض لهم هذا البحث ، فأجابوا مسرعين بهذا الجواب الموجز : « كانت سورية أهراء رومة في العصور القديمة . »

وهو جواب لا نتردّد في الحكم عليه بانه يكتنفه الخطأ ، اذا ما أُلقي على إطلاقه .

فعلينا اذًا ان نستند الى الوثائق الراهنة في تعيين دور لبنان وسورية الزراعي في العصر اليوناني - الروماني وتعيين اهمّيتها الاقتصادية الصحيحة . وذلك : ١ً — بدرس منتجاتها الزراعية ، و٢ً — بوصف طريقة تقسيم الارض فيها .

قلت ان سورية لم تكوّن اهراء رومة فتؤمّن اعاشة عاصمة الامبراطورية ، كما يتوهّم البعض . ذلك اننا نعرف « اهراء رومة » على تتابع الحقب ، وهي الاراضي الايطالية اولًا ؛ ثم سهول صقلّية ؛ ثم افريقية بعد الحروب الفنيقية ؛ واخيرًا مصر .

ويرى ارباب الاختصاص في هذا الشأن ان افريقية ، في القرن الاول للمسيح ، كانت تورد الى رومة ثلث حاجتها من القمح . وكانت مصر تقوم بالثلث الثاني . اما الثلث الثالث فكانت تنتجه سهول ايطالية ، واسبانية ، وغالية[1] . ولا نرى ذكرًا لسورية في الصادرات السنوية المنظّمة في سبيل « الاعاشة المدنية » او اعاشة العاصمة ، الّا بعد عيد قسطنطين الكبير ، وبعد ان انتقل مركز الامبراطورية من رومة الى ضفاف البوسفور . عندئذٍ يصحّ الفرض ان ملّاحي الساحل الفنيقي كانوا ، ولا بدّ ، من جملة اولئك « الملّاحين

(١) Haywood, *An Economical Survey of Ancient Rome*, IV, *Africa*, p. 42-43

الشرقيين » الذين عهد اليهم قسطنطين في نقل القمح والزيت والخمر الى القسطنطينية[1] . اما قبل هذا العهد فلم تصدّر بلادنا القمح الى رومة وما وراءها من الولايات الغربيّة في الامبراطوريّة ، إلّا مرّة بعد مرّة بطريقة غير منظّمة ؛ كما سنرى .

واذًا فلم يكن دور بلادنا الزراعي ضروريًا في اقتصاديّات الامبراطورية الرومانية . ولكن من الانصاف ان نقدره حقّ قدره .

ان لم تصدّر هذه البلاد الى رومة بطريقة منظّمة ما يفيض من منتجاتها الزراعية ، لا يعني هذا ان المنتجات لم تفض عن حاجتها ، او ان الارض كانت تستثمر في إعالة اهلها فقط . فانّ قسمًا مهمًا من محصول الحبوب كان يُحفظ لاعاشة الجيش الروماني المقيم في سورية . وكان هذا الجيش يتألّف من اربع كتائب ، وما يعادلها من الجيوش المساعدة ، فيبلغ ٥٠,٠٠٠ جندي في زمن السلم . اما زمن الحروب المتتابعة ضدّ الفارتيين ، ثم ضدّ الساسانيين ، فكانت تأتي النجدات من الاناضول ، وإلّيرية ، وميزة ، وجرمانية ، اي من جميع الحدود التي كانت تتمرّن فيها الجيوش فتكتسب دربةً وشجاعة . وكان على البلاد الشامية ان تقوم باعاشة كل هذه الجيوش .

وفضلًا عن إعالة الجيوش ، كانت الحبوب السورية تُصدَّر الى بعض الاسواق الخارجيّة ، لجودتها خاصّة لا لوفرتها . ومن المفيد ان نشير هنا الى اهم منتجات البلاد الطبيعية .

واوّلها القمح ، القمح الشامي الصلب المشهور . كانت مصر تستورد منه لتجدّد بذارها فتجوّد منتجاتها .[2]

ولم يكن نادرًا ان تستورد بعض الولايات الغربيّة من محصولات القمح

(1) *Cod. Theod.*, XIII, 5, 7 ; XIV, 22. Cf. Walting, *Et. hist. sur les corporations prof.* II, p. 310 ; Rostovtzeff, P. W. sv. *Frumentum*, col. 129, 49.

(2) Heichelheim, *An Econ. Survey*, IV, *Syria*, p. 128, n. 1 ; Johnson, *ibid*, II, p. 1, n. 3 ; il s'agit de Pap. Lond. II, n° 256 = Wilcken u. Mitteis, *Chrestomathie*, n° 344.

الشامي في ازمان المجاعة ، او في سني قلة الانتاج في بلادها . وقد يكون من دلائل هذه العلاقات التجارية ، تلك الصفيحة الفضية المكتشفة في ديرالقمر ، والمشتملة على رسالة منقوشة من المدير يوليانوس الى ملّاحة مدينة أرْل من بلاد غالية[1] . وقد كان لهؤلاء التجار الملّاحين محطّة في بيروت ، في اوائل القرن الثالث للمسيح[2] . فنستفيد من هذه الصفيحة المكتشفة انهم كانوا يشترون القمح وسائر بضائعهم في اسواق البلاد المنتجة نفسها.

والى العبد نفسه يرقى ، في ما يظهر ، رقيم مكتشف في بُصرى اسكي شام نقله الملازمان قنسنتي وبونديه وارسل اليّ بنسختين منه الاب مانسكل (Mascle) المرشد الروحي لجيوش جبل الدروز . اما نصّ الرقيم فتقدمة موجزة باللغة اللاتينية نُقشت على هيكل من الحجر الكلسي:

Mercu
rio Aug (usto)
[S] acrum
[T] husdr .
[i] tani
Gen (io) Col (oniae)
s (uae) (f) (ecerunt)

وترجمتها :

تقدمة (مرفوعة) الى مركور اغوسطوس .
اهل تيسدروس (رفعوا هذا الهيكل)
الى شفيع مستمرتهم . »

واما رافعو الهيكل فهم بعثة ارفدتها مدينة تيسدروس من اعمال تونس — واسمها اليوم الجيم — وهي مدينة اشتهرت بتجارة القمح طول العهد الامبراطوري . ولا يخفى ان وجود هذه البعثة في منطقة تبعد عن بلادها ، بل عن ساحل البحر ، بعدَ بُصرى ، لا يمكن شرحه الا بالرغبة في مشترى القمح من حوران المعروف بخصبه وجودة غلاله . ومما يجدر بالذكر رفعهم الهيكل

(١) *CIL*, III, 14165[a]

(٢) A. Grenier, *An Econ. Survey*, III, p. 478 et n. 55

الإكرامي لمركور الجامع صفتين مهمتين في نظر البعثة التجارية . فهو شفيع اهل تيـدروس ، اي حامي مدينتهم ، وهو اله التجارة الذي يشهد صفقات البيع والشراء . ومن المحتمل ان يكون هؤلاء التجار رفعوا له هذا الهيكل بعد ان نجحت وفادتهم فاشتروا باسعار موافقة ما كانت تحتاج اليـه مدينتهم من حبوب ، على اثر موسم ماحل بسبب ما كان يصيب افريقية الرومانية من جفاف .

ولا تنفرد الرقم الكتابية بالدلالة على محصولات بلادنا الزراعيـة . بل هناك عدد من الآثار المصوّرة والمنحوتـة اشارت الى بعض هـذه المحصولات الاشارات الصريحة . فرأينا منها القمح والعنب يُمثلان ، بل يمجدان ، في منقوشات بعلبك . فتتعرّش الكرمة على واجهة هيكل ديونيزوس ، وتلتفّ اغصانها على بنات البحر ، وصغار الآلهات ، بل تلتفّ على من تُرضع الجدي رمز الإله . وترتفع سنبلة القمح مقرونة بورق الخشخاش ممثلة خصب السهول المقترن برمز الرقاد الابدي الذي يستولي على ادونيس ، ولا يرحم شبابه الجميل . (الرسم ١)

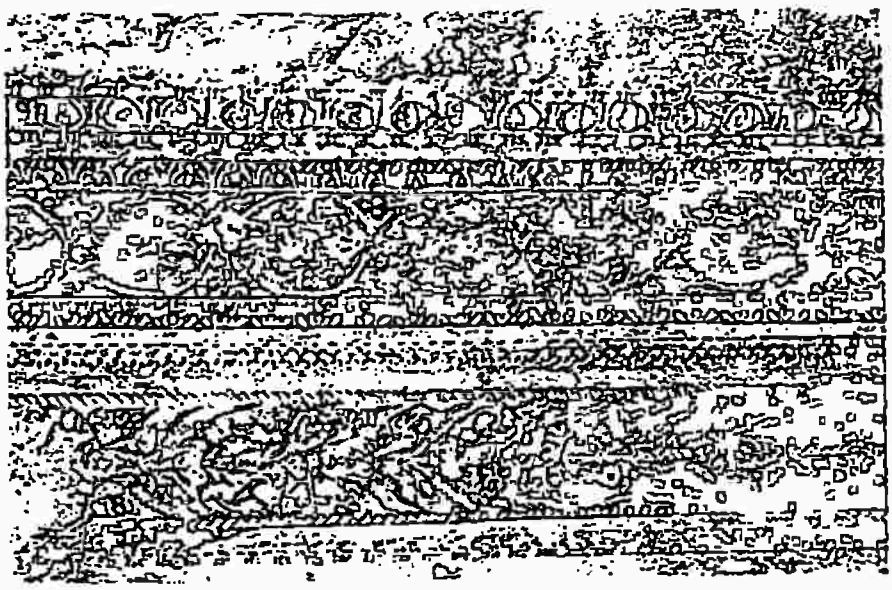

الرسم ١ — من نقوش الباب في هيكل ديونيزوس في بعلبك

وهـذا جوبيتر البعلبكي نفسه يحتلّ محـلّ الاله الشامي حَدَد ، إله الصواعق والامطار ، إله الخصب الذي ينمي الزروع. يشهد بذلك عـدد من المعابد الصغيرة مقامة على اسم هذا الإله، ولا تزال اطلالها الكثيرة ماثلة في سهل البقاع ، وفي المرتفعات المحيطة به . ويشهد ايضاً قطعة من النقود مثلت سنبلة ضخمـة من القمح وسط اعمدة الهيكل البعلبكي . ومن هـذه الآثار قطعة نقد فضية ترقى الى العهد اليوناني ، وتمثل الاله حَدَد الدمشقي حاملاً بيده اليسرى سنبلة ضخمة ، دالّاً على انه هو الاله الذي يضمن للبلاد غلّتها المهمّة. (الرسم ٢)

الرسم ٢ – قطعة نقد ترقى الى القرن الثاني قبل المسيح وتمثل الاله الدمشقي حدد حاملاً بيده اليسرى سنبلة ضخمة

ولقد كان للخمر الهه الخاصّ، او شفيعه المحامي، على الاقل في حوران وفي ما تدعوه اليوم جبـل الدروز . وهو دوساروس . اكتُشف له تمثال جميل من الحجر البركاني . وألفت الميتولوجية السورية حلقةً عن المعارك بينه وبين ليكورغ ، الاله الذي لا يشرب خمرًا . وقد مُثّل قريباً منه تمثال برونزي ، لحمار يحمل خرجاً موضوعاً على ظهره دون جلّ . والى جنبه قطعة خزفية تمثل جملاً محتلّاً . وقد يكون حمله من العنب الذي لا يزال ينقـل ، على ظهور الجمال ، حتى ايامنا هذه ، فيشهد المسافر في شمالي سوريـة قطاراً لا نهاية له من الجمال الناقلة العنب من السفيري الى حلب مثلاً .

على ان مناطق سورية والساحل الفنيقي لم تكن تصدّر العنب في ما مضى ، بل كانت تهتمّ خاصة بتصدير الخمر . فكانت الجرار المملوءة في بـيروت واللاذقية تصل حتى مرافئ البحر الاحمر. ولا يفـسد محمولها بفضل ما كان فيه

من كمية الكحول القويّة .[1] ومن المدن التي اشتهرت بخمورها حلبون ، قرب دمشق ، وأفامية ، وصور ، وغزّة[2] . وكذلك خمور اندرون ، او الاندرين ، في بادية الشام[3] ، كانت تتجاوز شهرتها حدود هذه البلاد . ويقال الامر نفسه عن خمور ضفتي الفرات . وقد كشفت حفريّات دورا - اوربوس ، على ضفة هذا النهر ، عن معاهدة يشير نصّها الى ان احد رجال الجيش الروماني المعاون ، اقام منزله قريباً من مصبّ الخابور ، واشترى كرماً فيه ٦٠٠ كعب من العريش يبلغ ١٧٥ قطعة من الفضة[4] .

واذًا فـان الكروم كانت منتشرة في انحاء البـلاد جميعها . حتى انّ الامبراطرة اصدروا عددًا من القوانـين في سبيل حمايتها من الرعاة واللصوص خاصة .[5] وقد يمكننا ان نتصوّر مظهر بعض هذه الكروم باستنادنا الى قطعة من الفسيفساء اكتُشفت في شرشل من بلاد الجزائر ، في نيسان ١٩٢٥ ، ومثّلت بعض الاعمال الزراعية ، ومظاهر الحقول . وقد ارّخها الاستاذ جان بيرار بأول القرن الثالث للمسيح او منتصفه . (الرسمان ٣ و ٤)

نرى في القسم الاسفل من هذه الفسيفساء طريقتين لغرس الكروم والعناية بها : ١ً طريقة التعريش التي ترتفع بها اغصان الكرمة على حمالة عاليـة . ٢ً وطريقة الكروم المنبسطة او الواطئة . وقد كانت الطريقة الاولى واسعة الانتشار حول الدور في المناطق الشاميـة جميعها ، كما لا تزال تراها في القرى اللبنانية حتى يومنا . الا ان العناية كانت تبلغ فيهـا حدّ الاتقان ، في تلك الدارات او المنازل الفخمة التي لا يزال المسافر يرى اطلالها ماثلةً في جنوبي غربي

---

(١) *Peripl. mar. Erythr.* 6, 49 = *Geogr. Lyr. Min.* I, 293

(٢) Heichelheim, *An Econ. Survey.* IV, p. 138-140

(٣) Noeldeke, *Sitzungsber* ; Vienne. CXL, 1899, VII, 31 s : d'après Honigman, PW, *Syria*, col. 1677

(٤) Pap. D. 101 : *The Excavations at D. E., Report* VII-VIII, p. 433 ss.

(٥) راجع في حماية كروم حوران : *GRK*, III, 1341 ؛ وكروم هيرابوليس فريجية : *Mon. As. M. Ant.*, IV, 297 ; Robert, *Et. Anatol.*, 104 ; apud Broughton, *An Econ. Survey.*, IV, p. 687

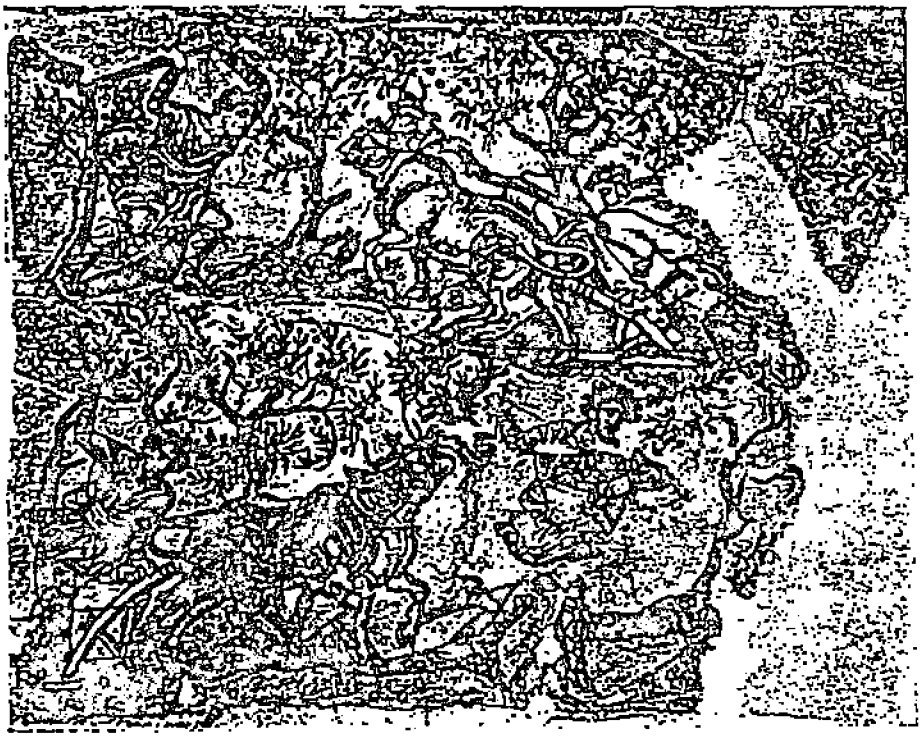

الرسم ٣ – قطعة من فسيفساء شرشل في الجزائر (القرن الثالث للمسيح)
تمثل اعمال الحراثة والزرع

حلب وفي شمالها الشرقي ، فيشاهد الصفوف المتتابعة من الركائز الحجرية تحيط بالماشي والممرّات او تحدّ الاملاك المتاخمة . والى جميع هذه الركائز كانت تستند الاعضاد الخشبية ، وعليها تعرّش اغصان الكرمة . نذكر منها خاصّة ما رأيناه في معرّ ، قرب الطريق الآخذة من حلب الى انطاكية . وهو سور بستان قديم، لا تزال الركائز الضخمة تحيط به . وله باب مزخرف بنقش هندسي بارز .

ولنعد الى فسيفساء شرشل . فنرى فيها مشهدًا للحراثة بين الزيتون . يقوم بها الثيران ، لأن الخيل لم تُتخذ لهذه الأعمال قبل القرون الوسطى . ويشاهد في اعلى الرسم ما يُعرف « بالشقّ » وهي الحراثة الحريفية ، فنرى فيها الفلّاح يرتمي بثقله على المحراث ليمتق الشق في الأرض ، بينما نرى في المشهد الأسفل ، نوعاً ثانياً

الرسم ٤ – قطعة من فسيفساء شرشل تمثّل بعض اعمال الكرمة

من الحراثة ، ينصح به المزارعون الرومانيون ، بناء على قول قارون وپلينوس ، بعد القاء البذور . ولهذا مثلت الفسيفساء الزارعَ يتقدّم المحراث .

ذكّرتنا فسيفساء شرشل ، اذ صوّرت لنا الحراثة بين الزيتون ، بما لا تزال نشاهده في يومنا هذا ، في حقول الزيتون الممتدّة غربي بيروت . بيد ان زيت الزيتون لم يكن يصدّر من هذه البلاد في العصر الذي يهمّنا امره . ذلك ان الزيت اللبناني والسوري كان لا يبلغ جودةً زيت ايطالية او اسبانية ، فكان عاجزًا عن مزاحمتها في الاسواق الرومانية[1] .

(1 Heichelheim, *op. cit.*, p. 136-137

بيد ان بلادنا كانت تصدّر الى رومة كثيرًا من النباتات العقاقيرية والعطريّة مع مستحضراتها كالناردين ، والبلسم ، والمرّ ، والميعة[1] وكذلك كانت تصدّر ، شأنها في العصور الفنيقية ، الاصماغ المستخرجة من الصنوبر والسرو ، ومن اشجار التربنت في منطقة دمشق.[2] ويجب الّا ننسى ، في سلسلة الصادرات هذه ، خشب البناء المقطوع من غابات لبنان. وسنعود الى الكلام على هذه الغابات .

ولم تكن اكثر هذه المنتجات من نبات بلادنا الطبيعي . انما كانت تغرس ويُعتنى بها وفقًا لطرق دقيقة منظّمة ومدوّنة منذ العصر الهليني . ولا يخفى ان الرومانيين اتخذوا مبادئ الفنّ الزراعي عن مزارعي الشرقيين . وذلك انه بعد ان تغلّبت رومة على قرطاجة ، شاءت ان تستفيد من معارفها ، فامر مجلس الشيوخ الروماني ، ان يُنقل الى اللغة اللاتينية مؤلّف ماغون الشهير في الزراعة ، الذي كُتب اولًا على الأرجح باللغة الفنيقية - القرطاجية ، ثم نُقل الى اليونانية ، ومنها الى اللاتينية.[3] وكذلك استفاد الرومانيون من جميع الاساليب المعروفة في الزراعة اليونانية .

ويمكن القول نفسه عن الفواكه والثمار الشامية التي جرّب الرومانيون ان ينقلوا غروسها الى بلادهم ، فيبلّدوها . نذكر منها الخوخ الدمشقي[4] ، ونوعين من التين ، والدراقن ، والمشمش ، وقد لا يكون هذا اصيلًا في الارض الشامية الّا انه كان متبلّدًا فيها في هذا العصر[5] ؛ والفستق الذي نقل غرسه من بلاد الشام ل. ڤيتلّوس ، والد الامبراطور المعروف بهذا الاسم ، عندما كان واليًا على سورية على عهد طيباريوس[6] . ونذكر اخيرًا نوعًا من الفجل السوري وآخر من

---

(١) Scheffer-Boichorst, p. 529

(٢) Heichelheim, p. 134-135

(٣) Columelle, *De agricultura.*

(٤) Pline, *H. N.*, XIII, 10, 51

(٥) Friedlaender, *Sittengesch.*, p. 307, d'après Helin, *Kulturpflanzen u. Haustiere in ihren Uebergang*, (1870 ; 7e éd. 1910)

(٦) Helin, p. 416

البصل المستاز دُعي في رومة « إيشالوت » (échalotte) وهي نسبة محرّفة اسقلان ، اصل منبته.[1]

ونقل الرومانيون كذلك الى ايطالية فنّ غرس الاشجار المثمرة وتقليمها ، مع مبادئ زراعة الخضراوات . وقد كان معروفاً عند القدماء ان فنّ البساتين وما يقتضيه من عناية دائمة تظهر خاصّة بالريّ المنظّم انما كان من خصائص بلادنا ولهذا نُقل عن پلينوس : *Syria in hortos operosissima ; unde venit in proverbium Graecis : Multa Syrorum opera.*

ومعناه : « ان سورية تمّ اشدّ الاهتمام بالاعتناء ببساتينها حتى ضُرب في ذلك المثل عند اليونان فقيل : ما اعظم اعمال السوريين ! »[2]

وعلى هذا فقد كان اليونانيون اذا ما تأملوا بساتين صور وصيدون ، يفكّرون باعمال هركول . كما نتكلم نحن اليوم عن اعمال الرومانيين ، اذا ما وقفنا على آثار القناطر والاسداد القديمة . وكان من فضل هذه الاعمال ان ازدهرت ازدهاراً عجيباً مظاهر الزراعة التي خُصّت بها بلادنا منذ العصور القديمة . وكما اخذ عنّا الرومانيون زراعة البساتين ، وتعزيق الارض ، واستعمال السماد ، وتنظيم الريّ ، وكل ما يتعلّق بنظرية الزراعة العلمية ، افادونا بمنشآتهم البنائية في سبيل تعزيز الزراعة . حتى ان ارباب السلطة في عصرنا الحاضر ، اذا ما ارادوا توسيع المناطق الزراعية المرويّة في سورية ، لم يكن عليهم الّا ان يرمّموا قنوات السليمية مثلاً ، او ان يرفموا السدّ الروماني في بحيرة حمص .

وغنيٌّ عن البيان ان الاساليب الزراعية لم تكن تُطبّق على الطريقة نفسها في مناطق تختلف فيها الاراضي اختلافاً بيّناً من حيث التكوين ، والموقع ، والارتفاع . وبسبب هذه الاوضاع الطبيعية وبعض العوامل التاريخية ، قُسمت الاراضي طبقات متعدّدة . على انه يجب القول ان الفرق بين الاراضي الجافة

(١ Pline, *H.N.*, XX, 16, 23 ; cf. Scheffer-Boichorst, p. 523 et Friedlaender, p. 307

(٢ Pline, *H. N.*, XX, 16. 33 ; Scheffer-Boichorst, p. 523

والاراضي المروية ليس تامًا بارزًا كما هو في مصر مثلًا. ذلك ان بلادنا تستفيد من مناخ معتدل لقربها من البحر ، ثم لما تفيدها سلسلة الجبال اللبنانية وسلسلة الانتوس من ايقاف الغيوم ، فتكثيفها ، فالعمل على هطول الامطار. ولهذا كانت انواع الاراضي فيها تشبه المعروف في آسية الصغرى وافريقية الرومانية :

١ً مناطق الكلإ او المراعي ومزدرعات الحبوب . وهي ممتلكات فسيحة في الجبال والمواقع البعيدة .

٢ً مناطق المزدرعات المتنوعة وهي من نوع الملكية الوسطى.

٣ً مناطق الخضراوات او المزدرعات الصناعية ، تقع قريباً من المدن والمحال المأهولة . ولنقل كلمة الآن عن الممتلكات الفسيحة والوسطى :

كل ارض من الممتلكات الفسيحة في سورية الرومانية ارث الملوك والآلهة.

كان الملك في العهد الهيليني يملك الاراضي الواسعة بفضل حقوق الفاتح الغازي ، او بما كان يقوم به من نزع ممتلكات اعدائه ، او بفضل حقه الملكي فقط . وكان ، على الغالب ، يسهر بنفسه على منتجات هذه الاراضي وكان اكثر الملوك والامراء ، في هذه البلاد ، من عمال روما او عملائها ، امثال ارخيلاوس التبادوقي او هيرودس الجليلي ، يستحقون عن جدارة ما يقوله شيشرون مادحاً ديجوتار ملك غلاطية : « diligentissimus agricola et pecuarius » ومعناه : « اوفر الناس اهتماماً بالزراعة والمواشي. »[1]

تشهد بذلك مغروسات البلسم التي استقدمها هيرودس من جزيرة العرب وبلدها في سهل أريحا الحارّ المناخ. وكثيرًا ما قام عبيد الملك ومواليه بتجربات زراعية من هذا النوع .

ويجدر بنا ان نذكر ، بعد الممتلكات الملكية والاميرية ، املاك الهياكل والمعابد . وقد كانت متسعة الرقعة على عهد الاحتلال الروماني . وكان الكاهن الأعظم ، المعيَّن على مدى عمره ، يهتمّ بادارتها واستغلالها . وكثيرًا ما كانت هذه المهنة وراثية ، فيقوم ابناء الاسرة الواحدة ، خلفاً عن سلف ، على ادارة

(١) *Pro Dejot.*, 27. Cf. Broughton, *An Econ. Survey*, IV, *Asia M.*, p. 685

الارض المقدّسة ، كما كانت الحال في هيراپوليس - بمبيكه ، او منبج الحالية ، بين حلب والفرات . وقد ورد عن حمص القديمة ، او حمص ، انها بعد ان تخلّصت من ملكية اسرة سسيجراموس ، وكانوا من العرب المتعصبين ، ظلّت في ايدي كهّانها . وكذلك القول عن املاك روسا . الأرباع في الجبل المقدس حرمون ، او جبل الشيخ ؛ وعن املاك پوليمون ، وليزانياس ، وزينودور ، اصحاب كلسيس او عنجر في البقاع ، الذين نقشوا القابهم على نقودهم فسمّى كلّ نفسه « رئيس ربع وكاهناً اعظم »[1]

وفي غير بلادنا من المناطق الرومانية ، كبلاد الاناضول ، وافريقية مثلاً ، بيعت املاك الامراء والملوك ، واملاك الهياكل باسم الشعب الروماني . فسهل لاغنياء الرومانيين من ارباب الرساميل ، واعضاء مجلس الشيوخ ، أن يمتلكوا الاراضي الواسعة . وانتقلت نهائياً الى ملك الامبراطور الخاصّ . اما في بلادنا ، اذا استثنينا ما زعمه البعض من وجود ملكية امبراطورية في الجليل الاعلى[2] ، فاننا لا نرى شيئاً من هذا النوع على عهد الأمبراطورية الأولى . بيد انه كان في بلادنا نوع من الحجز او الاحتكار موضوعاً على بعض الاراضي . يشهد بذلك اكثر من مائة رقيم محفورة على صخور الجبل اللبناني ، من شمالي غربي الهرمل الى المرتفعات القائمة فوق زحلة . وهي كتابات مهمّة في دلالتها على هذا الحق الامبراطوري ، وليس من اختلاف في نصوصها ، بل تذكر جميعها حقّ الامبراطور وتردفه ببعض ارقام . وقد حلّ ارنست رينان واحدة او اثنتين منها رُقْمًا دون اختصار . وهذا نصّها :

Imperatoris Hadriani Augusti-Arborum Genera quattuor, cetera privata.

ومعناه : « ان اربعة انواع من الشجر تخصّ الامبراطور هدريانوس – اغوسطوس . اما سائر الانواع فملكية خاصّة . »[3]

(1 W. Wroth Br. Muslins, *Galatia, Cappad. a. Syria*, pl. XXIII, 11 ss. et pp. 279 sqq.

(2 Jos. *Vita*, 13, 71 ; d'après Rostowzeff, *Soc. a. Econ. History*, p. 568, n. 30

(3 Renan, *Mission de Phénicie*, p. 253 ss. et 858 B add. à la p. 279=*CIL*, III

والارقام التي تتبع هذا النصّ تدلّ ، على الأرجح ، على عدد الاشجار المحفوظة او المحتكرة في المنطقة

بقي السؤال عن هذه الانواع الاربعة ما هي ؟

يستند البعض الى نصّ ورد عن فيجيس[1] ، فيستنتجون ان انواع الشجر الاربعة المحتكرة لملك السلطة الامبراطورية انما كانت الاشجار الصالحة لصنع المراكب وهي : الشربين ، والصنوبر ، والسرو ، والعرعر . اما في لبنان فيجب ألّا ننسى شجر الأرز .

وقد امكننا ، بمعاونة الاب جلابير ، ان نستفيد من رقم محفوظ في متحف الجامعة الاميركية ، فنلحق هذا الاحتكار بعملية واسعة النطاق قام بها الامبراطور هدريانوس لتحديد مناطق الغابات والمراعي.[2]

اما تاريخ هذه الرُقُم الحجرية فقد استخرجناه من درس حجر ضخم منحوت على شكل المِوشور ، ومنصوب قريباً من اللقلوق ، في عقبة الجبل المؤدية الى اليمونة فبعلبك . قادنا اليه احد اصدقاء الارض اللبنانية ، اسعد بك يونس ، فأمكننا ان نقرأ فيه :

على احدى جهاته : *Imp(eratoris) Had(riani) Aug(usti) vic (ies)* ou *vic(ennalibus)*

وسناه : « من الامبراطور هدريانوس المسلّك (اغوسطوس) عشرين مرّة »

او « في السنة العشرين لملك الامبراطور هدريانوس . »

وعلى الثانية : *C. Umbrius*

Proc(urator) Aug(usti)

وسناه : ك. أومبريوس

وكيل الامبراطور

وعلى الثالثة : *Imp(eratoris)*

il(erum) s(alutati) p(osuit)

« من الامبراطور المنادَى به امبراطوراً للمرة الثانية » .

(١ *Ex cupresso orgo et pinu domestica, sive silvestri larice et abiete praecipue liburna contexitur.* (Veg. V, 4)

(٢ راجع *MFO*, IV, 1910, p. 209-215 ; cf. Rostowzeff, *Klio*, 1911. p. 387

واذًا فان الرقيم يرقى الى السنة التاسعة عشرة من ملك الامبراطور هدريانوس ، وهي السنة التي تردي به فيها امبراطورًا للمرة الثانية ، وذلك بعد ان قُمعت الثورة اليهودية الثانية ، اي في السنة ١٣٤ م.[1]

وان تكن رُقُم هدريانوس — التي يشبهها رينان ، في عبثه ، ببطاقات زيارة تركها الامبراطور في انحاء لبنان — هي الأثر الوحيد في الدلالة على المتلكات الاميرية في بلادنا ، على عهد الامبراطورية الاولى ، فانه مما لا شكّ فيه ان امبراطرة القسطنطينية من القرن الرابع الى السادس كان لهم الاملاك الفسيحة يديرونها بانفسهم او بواسطة موظفي « المتلكات الخاصة » .

وكانت هذه الأملاك الامبراطورية تجاور ، في ذاك العهد ، كثيرًا من الاملاك الشاسعة نتجت من ضمّ عدة متلكات خاصّة قام بها الفلّاحون مجتمعين حول سيّد قوي راغبين في ان يعينهم ويحميهم . من هذه المتلكات ثروة ذاك الشيخ الانطاكي الذي يصفه القديس يوحنا فم الذهب ، في اواخر القرن الرابع ، فيقول كان له الاراضي الفسيحة فيها من عشرة الى عشرين منزلًا ، مع القصور او الدارات والحمّامات الخاصّة، وفيها من الف الى الفي عبد.[2] و١٠ آلاف من الموالي[3] .

على ان استثمار الاراضي بواسطة العبيد كان امرًا نادر الوقوع في سورية الرومانية . ولم يكن يُرى هناك الّا نادرًا قصور او دارات شبيهة بقصور كبانية الجامعة بين المتنزّهات ومراكز الاستثمار الزراعي ، والتي كان يشتغل فيها مئات

---

١) اطلب ، في تأريخ هذه الحادثة ، W. Weber, *Untersuchungen z. Gesch. des Kaisers Hadrianus*, 1907, p. 180, n. 643- d'après v. Rhoden, PW, I, 514 ; Weber, p. 276, n. 1015. Cf. aussi Cagnat, *Cours d'épigr. lat.*, p. 196. ويجب القول ان ك. أومبريوس اوكايوس أومبريوس هذا لم يذكر في *Pros. imp. rom.*, III بل هناك ذكر لرجل اسمه أومبريوس بريموس كان ملّاحًا في ليغورية على عهد ترابانوس (*ibid.*, p. 468, n. 596)

٢) *In Mt.*, 63, 4. Cf. *Vita parvae Melaniae, Hist. Laus.*, 109 = PG., XXXIV, 1230

٣) Heichelheim, *An Econ. Survey*, IV, p. 165, n. 16

العبيد ، بعضهم مقيّدون بسلاسلهم.[1]

واذا جاز لنا ان نذكر شبهاً بعيداً لبعض هذه الدارات الواقعة على شاطئ البحر ، فاننا نذكر ما كشفته الحفريات مؤخراً من آثار دارة في الجناح من رمال بيروت. وقد كان من نصيب المتحف الوطني اللبناني ان يحتفظ بقطع الفسيفساء التي كانت تزينها .

وفي الداخلية آثار لدارات سورية ، كانت تُقام عادة في منطقة يحصنها سور يدفع عنها غارات البدو . واننا نرى اكثرها منتشرة في شمالي سورية بين حماه وإدلب ، وحلب ، وانطاكية. واشهرها دارات جرادة على ١٥ كيلومتراً شمالي معرّة النعمان ، على الطريق من حماه الى حلب . (الرسم ٥)

الرسم ٥ — بعض آثار دارات جرادة القديمة في الغرب من معرة النعمان

وشبيهةٌ بها الدارات القائمة آثارها في ناحية البارة من جبل الزاوية . نرى في

(١ Rostowzeff, *Roem. Mitt.* XXVI, 1911, *Die hellenist-roem. Architectur-landschfat*, pl. IX, et p. 94

احداها سورًا يحيط بعددٍ من البنايات. منها منزل السكن ازدانت واجهته بعدد من الاعمدة الرشيقة في رواق عالٍ. والى جنبه الاصطبل. وفي جهة ثالثة بنايات المرافق، وبيت الحولي او الوكيل. اما الجهة الرابعة ففيها البستان، ولا تزال تُرى فيه معرّشات الكرم على الركاتر.

وقد تساءل العلماء، امام هذه الآثار الفخمة في البارة وسرجيلية: ألم تكن منازل صيفية لكبار المثرين في انطاكية؟

وان لنا في بعض النصوص القديمة اوصافاً لمساكن زراعية واقعة وسط الحقول. كانت تُدعى في العهد الهيليني «باريس». وهي لفظة محرَّفة عن اسم ساميّ قديم دخل اللغة اليونانية، ومعناه «البيت المتين» او «المنيع». ثم تحرَّف الاسم من جديد فصار «برغوس» باليونانية، واستخرج منه الاسم اللاتيني «تيترا برجيوم» ومعناه «البيت المربّع الابراج». وواضح ان الاصل السامي لكل هذه الكلمات هو ما يفيد معنى «البرج» بالعربية.

هذه القصور البرجية، او المربّعة الابراج، كانت على انتشار يُذكر في سهول سورية الرومانية. وعنها اخذ الامويّون انشاء قصورهم في الصحراء او «براديسم» المشهورة من امثال المشتى وقصر الحير وغيرهما.

على اننا لا نرى في الوثائق المعروفة ما يفيدنا وصفاً دقيقاً لهذه القصور المربّعة الابراج التي كان يسكنها كبار الملّاكين في سورية. فاضطررنا الى الاخذ بقطعة فسيفساء تمثّل قصراً من هذا النوع في قرطاجة. وهي قطعة معروفة بفسيفساء السيد يوليوس. (الرسم ٦)

نرى على واجهتها برجين يرتفعان من الجانبين. ونتصوَّر برجين كذلك في الجهة الموازية. اما الرواق الاعلى فمهدنا به في كثير من الابنية الشرقية، كقصر قطسيفون مثلاً. واذا ما اجتاز الزائر الرتاج العالي المنحني القوس، وجد نفسه في ساحة داخلية فسيحة، قامت حولها البنايات التي لا يرى منها في الصورة الّا سقوفها ذات القباب. ونتخيَّل بينها الحمام الخاصّ بوقده وغرفه الباردة والفاترة. وعلى الرغم من حالة الفسيفساء السيئة، يميّز الناظر عدة مشاهد تمثل اعمالاً زراعية تختلف باختلاف الفصول. فيرى، الى اعلى الزاوية من الشمال، جمع الزيتون في فصل

الشتاء ، ثم خادماً حاملاً اثنتين من البطّ البرّي . والى اليمين يظهر راعٍ مع كلبه ، ووراءه في سطح بعيد ، كرخ من الاغصان المغطّاة بالطين ينام فيه الفلّاحون . وفي اسفل الفسيفساء ، من جهة الشمال ، وسط الازهار ، تظهر خادمة تقدّم عقدًا الى ربّة المنزل . ويقابلها الى اليمين صاحب الدار جالساً ، يستقبل رسولًا حاملًا اليه إوزّتين هدية من احد الجيران . نعرف ذلك من الرقّ المنشور في يد الرسول ، وقد تضمن كتاب الاهداء ، وظهر عليه اسم المُرسَل اليه : [V[i (io)] dom (ino) « السيد يوليوس » . وفي الزاوية الاخيرة ، من جهة اليمين ، خادم يحمل سلّة فيها فواكه الخريف .

اما الذين كانوا يشتغلون في هذه الاراضي فمن العملة الأحرار ، لا العبيد . انما كانوا فقراء لا يكادون يتميّزون في شيء عن فلّاحي سورية الداخلية في يومنا هذا وكان يديرهم ويدرّبهم ذوو الثقة من رجال الملّاك ، سيّد الأرض ، موالٍيَ كانوا او عبيدًا . وكان للامبراطور وكلاء على املاكه الخاصّة ، كما تقدّم في ذكر كايوس أومبريوس الذي نقش اسمه على صخر اللقلوق .

وكان لصاحب الأرض السلطة المطلقة على املاكه وعلى من يشتغل فيها . كما كانت سلطة الاغوات على اراضيهم وفلّاحيهم ، الى الأمس ، في سورية الداخلية . وقد كُشف في جُبَيل - بُبلُس ، على عشرين كيلومترًا شمالي صور ، حجر تذكاري لإقامة حاجز حول بركة القرية تنفيذًا لأمر حاكم المنطقة او امر الامبراطور . اما ما يهمّنا فهو نصّ المحضر الذي يشير الى بناء الحاجز ، قال :

« وفقًا للقرار المقدّس ، أُقفلت البركة بحاجز وأُصلحت على عهد الملّاك كلوديوس بينوس ، بعناية نرسيس ابن . . . وعبد بينوس المذكور . »(١

وجديرٌ بالذكر ان مَن يُشاد باسمه في هذا الرقيم ليس الامبراطور ، ولا الوالي ، بل الملّاك صاحب الأرض .

(١ R. Mouterde, *MUSJ*, XVI, 1931, p. 93, n° 10.

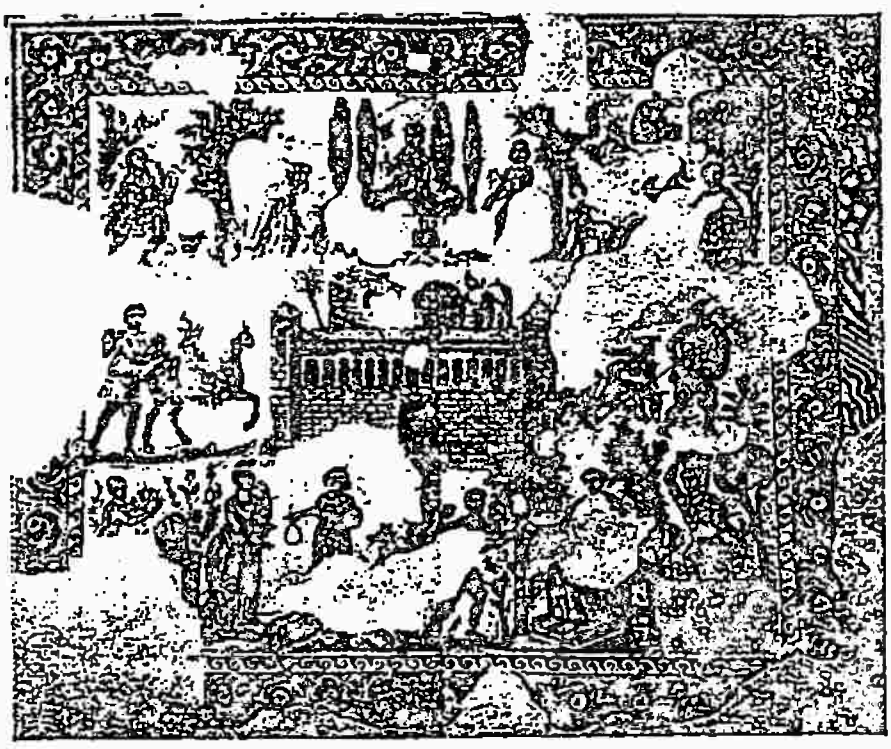

الرسم ٦ – قطعة من الفسيفساء تمثل قصر السيد يوليوس الروماني في قرطاجة

هذا ما امكننا جمعه في وصف الحالة الزراعية في سورية ولبنان على العهد الروماني . وهو مشهد ناقص ، يفتقر الى الكثير من المعلومات في اظهار ما كان يفيده الملّاكون والمزارعون ، مثلاً ، من حالة الأمن العام ، من « السلم الروماني » المشهور ، ومن ضمانة الاستقرار في الملكية ، الناجمة من تأسيس اعمال المساحة والتحديد الرسمية منذ عهد السلوقيين .

بيد ان هذا المشهد ، على ما فيه من النقص ، يبدو جزيل الفائدة . اذ يظهر لنا ما امتازت به الزراعة من ازدهار في بلادنا اذ ذاك . وقد لا نخطئ اذا قلنا ان فلاح ذاك العهد كان اوفر حرّية ، فاكثر انتاجاً ، فأيسر حياةً من الفلّاح السوري في يومنا هذا . كان له كرمه الخاصّ وزيتونه الخاصّ . وكان

الملّاكون يهتمون بازدهار الزراعة ، وتحسين حالة المزارعين اكثر من اهتمامهم بربح الأموال التي يستغرقها فلّاحيهم . فلا عجب اذًا ان يكون سكان هذه البلاد قد بلغوا اذ ذاك ، وفقًا لادقّ التخمينات ، ضعف ما يبلغونه اليوم في المنطقة نفسها . وانّ مَن شاهد ، في سهول سورية الشمالية خاصةً ، بقايا الآبار والفجّارات ، واطلال معاصر الزيت والخمر ، وآثار المزارع والكنائس الدارسة ، لا يناله شكّ في صحة هذا القول .

وقد يعود لبنان وسورية الى ازدهارهما الزراعي فيعيشان في رخاء على شريطة ان تتعاون السلطات العامّة وكبار الملّاكين في عمل مخلص مشترك .